أولاً: إضاءات في فضل العلم وأهله

١- فضل العلم وشرف أهله:

(كان عطاءُ بنُ أبي رَباحٍ عبداً لامرأةٍ مِن مكَّةَ، أسودَ، أعـــورَ، ثم عمِي، أفطسَ، أشلَّ، أعرجَ.

جاءَه سليمانُ بنُ عبدِالملكِ، أميرُ المُؤْمنين، هو وابناه، فجَلَسوا إليه وهو يُصلِّي، فلمَّا صلَّى انْفَتَل إليهم، وما زالوا يَسْأَلُونه عن مناسكِ الحجِّ، وقد حوَّل قَفاه إليهم، ثم قالَ سليمانُ لابنَيْه: قُومَا. فقامَا، فقال: (يا بنيَّ، لا تَنِيَا في طلبِ العلمِ؛ فإنِّي لا أنْسَى ذُلَّنا بينَ يَدَيْ هذا العبدِالأسودِ)[1].

وتفقَّه أبو بكرٍ الكاسانيُّ على علاءِ الدينِ السَّـــمرقنديِّ، الـــذي زوَّجَه ابنتَه فاطمةَ، الفقيهةَ، العالمةَ، قِيل: (إنَّ سببَ تزويجِه بابنةِ شـــيخِه؛ أنَّها كانت مِن حسانِ النساءِ؛ وكانت قد حفِظـــتِ التُّحْفَـــةَ تصـــنيفَ والدِها، وطلَبها جماعةٌ مِن ملوكِ بلادِ الرومِ، فـــامتنعَ والـــدُها، فجـــاء الكاسانيُّ، ولزِم والدَها، واشتَغَل عليـــه، وبـــرَع في عِلْمَـــي الأصـــولِ، والفروعِ، وصنَّف كتابَ البدائعِ وهو شرحٌ للتُّحفةِ، وعرَضه على شيخِه فازداد فرَحاً به، وزوَّجه ابنتَه، وجعَل مهرَها مِنه ذلك، فقال الفقهـــاءُ في عصرِه: شرَح تحفتَه، وزوَّجه ابنتَه)[2].

---

(١) (تاريخ دمشق، لابن عساكر) (٣٧٥/٤٠).

(٢) (الجواهر المضية، للقرشي) (٢٦/٤).

(رأى الرِّياشِيُّ سقَّاءً على رقبتِه قربةٌ، فقال: لولا العلمُ لكنتُ مثلَ هذا. وكان أبوه عبداً سقَّاءً)[١].

وقال أبو الأسودِ: (ليس شيءٌ أعزَّ مِن العلمِ، وذلك أنَّ الملوكَ حُكَّامٌ على الناسِ، والعلماءُ حكَّامٌ على الملوكِ)[٢].

وقال حمدانُ الأصفهانيُّ: (كنتُ عندَ شريكٍ، فأتاه بعضُ ولدِ المهديِّ، فاستندَ إلى الحائطِ، فسَأَلَه عن حديثٍ، فلم يلتفِتْ إليه، وأقبلَ علينا، ثم عادَ، فعادَ بمثلِ ذلك، فقالوا: أتستخفُّ بأولادِ الخلفاءِ؟ قال: لا، ولكنَّ العلمَ أجلُّ عندَ أهلِه مِن أن يُضيِّعوه. قال: فجثَا على رُكبتَيْه، ثمَّ سأَلَه، فقال شريكٌ: هكذا يُطلَبُ العلمُ)[٣].

رُوِي عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضِي اللهُ عنه أنَّه قال: (كفَى بالعلمِ شرفاً أنْ يدَّعِيَه مَن لا يُحسِنُه، ويفرَحُ به إذا نُسِب إليه، وكفَى بالجهلِ ذمًّا أن يتبرأَ منه مَن هو فيه)[٤].

قال ابنُ القيِّمِ: (كلُّ صفةٍ مدَح اللهُ بها العبدَ في القرآنِ فهي ثمرةُ العلمِ ونتيجتُه، وكلُّ ذمٍّ ذمَّه فهو ثمرةُ الجهلِ ونتيجتُه)[٥].

---

(١) (الحث على طلب العلم، للعسكري) (ص٥١ - ٥٢).

(٢) (الحث على طلب العلم) (ص٥٣).

(٣) (الحث على طلب العلم) (ص٨٥).

(٤) (تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة) (ص١٠).

(٥) (مفتاح دار السعادة لابن القيم) (١/٣٧٩).

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ۞ فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٢،٥١].

قال ابنُ القيِّمِ معلِّقاً - وتأمَّلْ كلامَه - : (فهذا جهادٌ لهم بالقرآنِ، وهو أكبرُ الجهادَيْن، وهو جهادُ المنافقين أيضاً، فإنَّ المنافِقينَ لم يكونُوا يُقاتِلون المسلِمينَ، بلْ كانُوا معهم في الظاهرِ، وربَّما كانوا يُقاتِلون عَدوَّهم معهم، ومعَ هذا فقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:٧٣]. ومعلومٌ أنَّ جهادَ المنافقين بالحُجَّةِ والقرآنِ.

والمقصودُ أنَّ سبيلَ اللهِ هي الجهادُ وطلبُ العلمِ، ودعوةُ الخلقِ به إلى اللهِ ...)[1].

٢- حلاوة العلم ولذته:

(كتَب عبدُالملكِ بنُ مَروانَ إلى الحجَّاجِ: انظرْ لي رجلاً، عالماً بالحلالِ والحرامِ، عارفاً بأشعارِ العربِ، وأخبارِها، أستأنسُ به، وأُصيبُ عندَه معرفةً. فوجَّه إليه الشعبيَّ، وكان أجمعَ أهلِ زمانِه.

قال الشعبيُّ: فلم ألقَ والياً، ولا سُوقَةً[2]، إلا وهو يحتاجُ إليَّ، ولا أحتاجُ إليه، ما خلا عبدَالملكِ، ما أنشدتُه شعراً، ولا حدَّثتُه حديثاً إلا وهو يزيدُني فيه، وكنتُ ربَّما حدَّثتُه وفي يدِه اللقمةُ فيمسكُها، فأقولُ: يا أميرَ

---

(١) (مفتاح دار السعادة، لابن القيم) (١/٢٧١، ٢٧٢).

(٢) السُّوقَةُ عِنْدَ الْعَرَبِ خِلَافُ الْمَلِكِ (المصباح المنير) (س و ق) .

المؤْمِنين، أسِغْ طعامَك، فإنَّ الحديثَ مِن ورائِه، فيقولُ: ما تُحدِّثني به أوقعُ بقلبي مِن كلِّ لذةٍ، وأحلَى مِن كلِّ فائدةٍ)[١].

قال ابنُ القيِّمِ: (وحدَّثني شيخُنا- يعني ابنَ تيميةَ- قال: ابتدأني مرضٌ، فقال لي الطبيبُ: إنَّ مطالعَتَك وكلامَك في العلمِ يزيدُ المرضَ. فقلتُ له: لا أصبرُ على ذلك، وأنا أحاكِمُك إلى علمِك، أليستِ النفسُ إذا فرِحتْ، وسُرَّتْ، قوِيت الطبيعةُ، فدفَعتِ المرضَ؟ فقال: بلَى. فقلتُ له: فإنَّ نَفْسي تُسَرُّ بالعلمِ فتَقْوَى به الطبيعةُ، فأجدُ راحةً. فقال: هذا خارجٌ عن علاجِنا...) اهـ[٢].

(١) (معجم الأدباء، لياقوت الحموي) (٣٣/١).

(٢) (روضة المحبين، لابن القيم) (ص٧٠).